الشاعر نوفاليس

١٧٧٢ — ١٨٠١

للاستاذ خليل هنداوى

غالى قوم فى نعتهم (نوفاليس) بنى المدرسة الرومانتيكية الألمانية ، وقد كان لنوفاليس تأثير واضح فى تشييد دعائم هذه المدرسة فى عصر كان الأدب الألمانى فيه حائراً تتهاداه السبل ، وتتقاذفه الشكوك . ولكن هذا التأثير لايجعل من نوفاليس نبياً قدسى الآيات ، ولعله كاد أن يكون نبياً وفوق النبى لهذه المدرسة ، لو لم يقتطف الموت زهرة صباه عاجلا قبل أن تتفتق ، ولكن قلبه النضير ، قلبه الشاب استطاع ان يسبح فى عوالم الشعر . ويعود — بعد طوافه — غنياً بما جمع والتقط وكثير ما هم النبغاء الذين تنبغ قلوبهم قبل ان تنبغ اعمارهم . ويفيض عبيرهم قبل أن تتفتح ازهارهم ، ويمضون سراعاً وهم فى مقتبل العمر ، وقد تركوا وراءهم دويا لا ينسى ابد الدهر ، شأن شيللى وكيتس ونوفاليس . لكل نابغة — فى مقتبل عمره — مثال من النوابغ المعجب بهم ، يتأثر به ويتشيع له ويترسم خطواته . وكان (شيللر) مثل (نوفاليس) الأسمى ، كان مثله فى البراعة والعظمة والكمال . وشيللر هو الذى احيا فى نفسه هذه الميول ، ودفع به الى الحياة الشعرية .

خبت فى نفسه هذه الميول ، ثم مالبثت ان هبت ثانية على أثر مطالعته كتب (ويلهلم مستر) وعكوفه على هذه الكتب يتلوها تلاوة وجد وهيام ، فطبعت فى نفسه لحنا رومانتيكيا وولدت عنده حقائق عميقة محاطة بالرموز ، ولكن هذه الميول ظلت هامدة ساكنة لا يقوى شىء على إظهارها ، حتى عرضت لعينيه غادة أحلامه متمثلة فى (صوفيا الصغيرة) التى لاتتجاوز الاثنى عشر ربيعا . فخطبها فكان له ذلك ، ولكن القدر كان قاسيا ، فانتاب الفتاة داء لم يمهلها الا قليلا ، فتيقظت ميوله واهتاجت عواطفه ، وبكاها ما شاء له البكاء ، ينظم فيها الشعر ويجعلها مثله الأعلى فى الوجود . ويعتقد أنها حية فى نفسه لم ينهبها موت ، وإنما الميت هو نفسه ، وأنها سبقته إلى ذلك العالم تدعوه اليها . فيسأل : « هل فى استطاعة الارادة البشرية التى تحول وتبدل ماتشاء فى هذا العالم ان تجوز أبواب الابدية ؟ .

ويقول : « أود ان أموت ، لاموت ذلك الكائن البالى الذى عافته الطبيعة ، أود ان أموت كالعصفور المتنقل الذى يسعى وراء أقطار جديدة ، أود ان اموت فرحا كالشعر الفنى » وبهذه العاطفة التى تجعل تشاؤمه مضيئا كتب (أغانيه لليل) بأسلوب شعرى منثور ، لم ينقصه الوزن شيئا من روعة معانيه ، ولم يضع ثمره من العاطفة الشعرية . يغلب على أغانيه شىء من الطرب القاتم ، يناضل به صاحبه الشقاء . هذا هو الطرب الذى خفف من شقائه ، وهذه هى الفتوة التى كانت تزين له الاحلام وتنقله من حياته هذه الى حياة اكثر سعادة وأحسن أملا .

أراد (نوفاليس) أن يطارق عالم الفلسفة فغلب عليه خياله ، وتبدو فى كتابه (الاغانى) و (الدفتر اليومى) فكرته التى تدور حولها فلسفته ، وهذه الفكرة يريد من ورائها ان يفرض سلطة الروح بدون واسطة على المادة وعلى الاشياء ، كما هو الحال فى العلم الذى يسيطر عليها ، وهذه الفكرة هى (علم السحر) ويعتقد ان ازاء فن المنطق الذى يعتمد على الاقيسة العقلية والبراهين الفكرية فنا هو أسمى منه ، يدعوه (عالم الوهم) وهذا الفن هو ان نعرف كيف نستنتج بصورة نفسية فنا نعمل به على تحقيق أحلامنا وأوهامنا ، وغير مغنيك شيئا ان تسأل (نوفاليس) عما ينتج من هذا الفن من فائدة ، فانه يطلب اليك ازاء الحاحك الكثير ان تغادره سعيداً فى أقطار أوهامه وأخيلته ، وهذا المعتقد الفلسفى قد أثر تأثيراً واضحا فى روحه الشعرية ، وما كانت هذه الروح الا اثرا من آثار هذا المعتقد الذى يشيع فى كل جوانب نفسه ، فيحس فى نفسه ميولا عميقة لا تقل غموضا عن جوهرنا الذاتى ، لا أسماء لها ولا القبض عليها مستطاع ، فيوجب على الشعر أن يوقظ فينا مثل هذه الميول ، لأن الشعر هو لسان باطنى ، وتعبير تحدث به النفس ذاتها ، وعليها أن تنفر كثيرا من الصيغ الواضحة كل الوضوح لأن كل وضوح وكل حد تحمل عليه النفس يحدد آفاق النفس التى يجب الا تحد .

الموسيقى هى الفن الاول ، والشعر هو أولى الفنون كلها بالتقرب من فن العزف والضرب على الاوتار ، وكما أن الشعر يهتك الاستار ويهبط علينا بالاسرار ، فالموسيقى تحمل الينا معانى الطبيعة الخفية المستورة وتعبر لنا عن نفس الطبيعة ، ونفس الطبيعة عنده هى الشىء الغريب ، والشاعر هو الذى يعطل فينا ملاحظتنا العادية

(استدراك) فاتنا أن ننبه إلى أن قصيدة «جيفة» وقصيدة «عالم النسيان» وقصيدة «الغابة المفجوعة» المنشورين فى العدد ٤٦٣ تحت عنوان : صور من الشعر الرمزى ، هى من وضع الاستاذ الهنداوى لا من ترجمته

للاشياء ، ويرينا الخليقة كما تبدو للانظار فى الوهلة الاولى ، هو يعجبنا ويذهلنا وهو بعد ذلك عندليب مترنم .

هذا هو مذهب (نوفاليس) فى الشعر أعلنه يوم كانت المدرسة الرومانتيكية فى بدء عهدها . وعده بعض انصار هذه المدرسة تيا للمدرسة ، على أن هذا المذهب الذى جاء به لوحلله الناقد وعمل على مقارنته بالمذهب الرمزى لرأى أنه أدنى الى الرمز منه الى المذهب الرومانتيكى ، لأن صاحبه رمزى وأكثر تمسكا بالرموز من أصحابها بها . ولكن ذلك الجيل كان يجهل بواعث الرموز ، وفلسفة ذلك الجيل لم تصل الى تقرير المشاعر الباطنية فى النفس تقريرا علميا . فلم ير ذلك الجيل الا أن يحشره مع المدرسة الرومانتيكية ، وان لم يكن منها .

أليس نوفاليس هو الذى يعلن أن هنا لك ميولا خفية لا تسمى هى ما يجب على الشاعر ان يوقظها ويخرجها بلغة لا يفسدها الوضوح ، وهذا المذهب نفسه هو الذى آلى (الرمزيون) على انفسهم ان يظهروه . وجعلوا أصحابه أصحاب مدرسة جديدة فى الشعر . ولم ينس نوفاليس تأثير الموسيق فى الشعر ، فأوجب على الشاعر أن يكون نظمه وإيقاعه للألفاظ ايقاعا موسيقيا ، لأن الموسيقى لغة النفس

ولكن تلك الفاجعة التى نزلت به فى مطلع صباه ، جعلت منه شاعرا متألما يتغنى بألمه ، ويأبى أن يظهر والألم غالب عليه فيضحك للألم ويطرب للشقاء ، ويرشف دموعه ناعما كما يرشف الطائر الظمآن دماءه ، وفى هذه المجالى تسمع نفسه تشكو وصدره يزفر ، وترى عينيه محدقتين فى العالم الموهوم الذى تصوره وشاء أن يسكنه

روح (نوفاليس) الرومانتيكية تبدو فى رواياته التى كتبها لنفسه ، لأنه لم يستطع أن يدخل إلى العالم ويعاشر سكانه ويعرف أهواءهم ، لأنه شاعر غنى يريد أن يوزع ما لديه بعد أن ضاقت جوانب نفسه بكنوزها ، هو لا يأخذ ولكنه يعطى . وهكذا نرى (نوفاليس) شاعرا فى رواياته ، شأنه أن يجود وأن يعطى .

وضح مذهبه الشعرى جليا فى روايته (هنرى دوفتر ينجين) التى جاءت ناطقة عن نفسه . نوفاليس الذى فقد (صوفيا) وهام بعدها هيام الجنون ، قد وجدها مرة ثانية حية فى (جوليا) فأحب هذه وكأنه يحب صوفيا ، وخطبها كأنه يخطب صوفيا فأطفأ هذا الحب الجديد كل ما لقى من كآبة وسأم . وأخذ يستقبل الحياة بقلب يخفق مرحا . ويشيع عهده الأول ليدخل فى عهد ثان طافح بالأمل والرجاء .

بدأ يكتب روايته هذه ، ولكن القدر لم يشأ له أن يكملها . فألف جزأها الأول ، وترك بعده مقطوعات منثورة قد تتم معنى روايته وتظهر الغاية التى سلك اليها . يبدأ جزؤها الأول بحلم وينتهى بقصة ، وكلا الحلم والقصة جزءان متلائمان متنظمان يعبران عن نفسية البطل (وبطل القصة) خلق شاعراً ، ونشأ تحت رعاية والديه ، يقضى وقته متأملا متنقلا فى مروج الخيال . دون أن تحول حوائل بينه وبين ما يصبو اليه .

رأى فى حلمه الزهرة الزرقاء ، وهى مثل حياته الأعلى ، ورأى انه اذا أرادها لنفسه ، فمن الواجب عليه أن يهجر وطنه ، ويسيح فى أقطار الارض وبقاع العالم . فأطاع هذا الهاتف النفسانى ، وسار فى الارض يتأمل فى أقطار تقع عليها عيناه . وفى طريقه التقى بالساحر الشاعر (...) وهو الذى القى عليه بعض فصول ممتعة فى الفن ، وأفهمه مخاطر الهيام ، وأدلى اليه بفائدة التأمل والتمحيص . وكان لهذا الشاعر الساحر ابنة جميلة ، ما أن وقع عليها نظر هذا الهائم حتى جن بها ، واعتقد أنها هى (الزهرة الزرقاء) التى وجدها فى حلمه . فشغف بها شغفا شديداً ، ولكن المنية داهمتها فقضت نحبها — وهذه الجميلة لم تكن الا (صوفيا) محبوبة نوفاليس الأولى — ثم واصل الشاعر الفتى سياحاته فى الارض ، ما زاده موتها الا كلفا وهياما .

ثم تأتى أجزاء الرواية المنثورة فنفهم منها أن البطل سيعرج على ايطاليا ويعرج على اليونان ، ثم يسيح فى بلاد المشرق . ثم يجتمع بالشاعر الساحر ؛ فتقوم — هنالك — مجادلة شعرية فنية ثم يتعرف الشاعر الفتى الى فتاة تمثل (الزهرة الزرقاء) وتحل محل الاولى — وهذه الجميلة الثانية هى (جوليا) محبوبة نوفاليس الثانية . — فتجدد له حياة زاهية الألوان . وتبنى له من الارض الغبراء سماء ساطعة الأضواء . فيرى الشاعر فى وجهها وجه الأولى ، وهما متحدان مقترنان فى وجه واحد وسام كامل ، وهكذا تنتهى سياحة الشاعر .

والشاعر بعد أن ساح فى أقطار الارض ، وبعد أن تعرف الى صور كل شىء ، لم يبق له وراء ذلك الا أن يطوى نفسه ، ويدخل الى عالم نفسه — كما يقول نوفاليس فى احدى مقطوعاته — « الا إن كل شىء يقودنى الى نفسى ! » ، وهذه هى الفكرة التى بنى عليها نوفاليس روايته .

فالرواية لا تتخذ لها أجواء الا أجواء النفس ، وهى ضيقة بحقيقتها واسعة [illegible] تمتزج مع خيال الشاعر ولا تلائم حقيقة

الفيلسوف . قد اجتمع فيها كل ألم الشاعر وآماله . وكل ما اعتقد ويعتقد من قواعد فى الشعر والفن - وهذه الرواية هى أدنى الى القصيدة الشعرية منها الى القصة التى تعتمد على الألوان الخارجية . وهى قصيدة طويلة عميقة الخيال ، بعيدة الغور ، تصل الى أعماق الباطن والنفس ، يظهر فيها نوفاليس الشاعر وراء الشخصية المبهمة التى تلبس بها . تلك الشخصية التى تستفزها الاحلام وتهيجها الآمال وتفهم الجمال الكلى الذى لايموت بموت الملامح .

روح وادعة تنظر الى الوجود بعين الأمل والرضا ، يريد صاحبها ان يحمل شقاءه كصديق ، ولا يريد أن يوليه مملكة قلبه وعقله كالغالب يعيث فيها فساداً . لأنه يرى نفسه مرتاحة بهذا النزر من الشقاء قال عنه (فردريك شيلجل) « وكان لايجد أثراً للسوء والشر فى الوجود ، وكان يعتقد أن كل شىء يستعد ليدخل فى حياة ذهبية » ونوفاليس يقول عن نفسه « ان الطبيعة حتى هذه النعمة ، نعمة النظر الى سمائها ولألائها بعين المرح والسرور » وهذه الكلمة تبدى لنا احساس (نوفاليس) العميق فى الطبيعة ، وتفهمه لدقائق أشيائها . هو احساس لاتغلب عليه العاطفة الهوجاء . ولا تصدمه الحقيقة السائدة فى الوجود ، وكيف نريد ان نقيد أو نحدد إحساسه وهو الذى آمن بالاحلام ليستطيع أن يكيف الطبيعة كما تبتغى احلامه . وهو يبغى أن يحيا فى الطبيعة كما يريد لا كما تريد هى . . ! ولكن هذا المرح لم يكن مرحا هائجا ثائراً ، بل كان مرحا ساكنا هادئا ، يتمشى بين ثنايا ه ألم عميق إذا تعمق الناقد فى باطنه تبينت له تلك السحابة القاتمة ، وتلك الظلة الفاحمة . وقد تكون سحابة قاتمة لكنها موشاة بألوان الشفق الوردى : يبدوا حمرارها للعين ويتوارى سوادها . وقد تكون ظلة فاحمة ولكن أشعة قمر مستور يغمرها بشعاع باهت ينيرها ولكن لايظهرها .

هذا هو (نوفاليس) الذى غادر الوجود ولما يبلغ التاسعة والعشرين ، قد غالى قوم فى تقديسه حتى نسبوه (بنى المدرسة الروماتيكية) . وغالى قوم فى بخسهم قيمته ، فقالوا ان فنه هو مجموعة أحلام صبيانية . والناقد الحق هو الذى لا يغالى فى الأمرين . ينظر الى الأولين فيدرك أنهم أرادوا لو انفسح عمر الشاعر لكان منه ذلك النبى المزعوم . وينظر الى الآخرين فيدرك أن مقاييسهم كانت قاسية ، تريد من الشعر مالا يريد الشعر من نفسه ، فيقف بينهما موقفا وسطا ويقول : كان نوفاليس شاعراً تلاه ناس ، وسوف يتلوه ناس ، لانه كان شاعر النفس والعاطفة العميقة والاحلام والرموز ؟

الى الاستاذ زكى نجيب محمود

آخذ الرسالة بيدى ، وأفتح عينى على أسماء كتابها ، فأفرح كلما وقعت على اسم قام بينى وبينه شىء من التفاهم الروحى ، وهذا التفاهم هو الذى يدفعنى — فى كل رسالة — الى النظر لهذا الاسم ، والتحرى عنه بين الأسماء . فاذا لم أجده غاب على نفسى شىء من المرارة ، لأنى أحببت هذا الاسم وأحب أن أراه فى كل رسالة .

بين هذه الأسماء — اسم الاستاذ زكى نجيب محمود — الذى خص الرسالة بصفحات لامعة من تاريخ الفلسفة الفكرية ، وقرب كثيرا من ابعادها ، وحلل كثيراً من مذاهب أصحابها . وهذه المقالات سدت فراغا كبيراً فى الأدب العربى ، وعرفت أهله بأقطاب الفلسفة الغربية بصور واضحة بليغة ، هى أوجز ما تكون سطوراً ، وأملأ ماتكون أفكاراً .

هذا الاسم أطرب له ، وأهفو اليه كلما وقعت عليه ، ويستولى على شىء من الحيرة اذا لم أجده بين الأسماء . لأنه أصبح عزيزاً على ، لا أريد ان يغيب عنى ، مهما كانت عوامل هذا الغياب .

انى أعجبت — بمقالاته الفلسفية — كما أعجب بها كثيرون ، وقد رأيت ان هذه المقالات قد تكون اكثر فائدة لو كان يربط مابينها وحدة متماسكة متراصة ، وأريد من وراء ذلك ان يدرس الكاتب العصور الفلسفية دراسة تنتظم فيها دراسة الاشخاص والافكار والايام والعصور — ادبية كانت او فلسفية — لها تأثيرها فى الاشخاص كما لها تأثيرها فى المذاهب ، وخير حل لهذه النقطة — والامر امر الكاتب — ان يبدأ بدرس الحركة الفلسفية من بدء نهضتها وثورتها ويأتى على أصحابها ويصف تأثيرهم وتأثير مذاهبهم فى التطور الفكرى ، مع شىء من المقارنة بين المذاهب المتباينة ، ومثل هذا الدرس يجعل — للمقالات — وحدة يفتقر اليها من ود ان يقف وقوفاً تاماً على تطور الحركة الفلسفية عند الغربيين ، وهذه الوحدة هى لازمة — فى اعتقادى — وقد تكون ألزم من الوحدة فى الادب لان الادب الحاضر يستطيع ان يحيا اذا قطع كل اواصره مع الادب القديم ، ولكن الفلسفة — ومسائلها الحاضرة هى ذات مسائلها الماضية — يخطىء من يريد ان يتفهم تطورها الحديث قبل ان يقف على تطورها القديم .